

زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى

شَاعِرُ الْأَنَاةِ وَالِدَعَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْهُدُوءِ

أَنَا زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى رِبِيعَةَ بْنِ رِيَّاحِ بْنِ قُرْطِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَازِنِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ ثَوْرِ بْنِ هُدْمَةَ ابْنِ لَاطِمِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ مُزَيْنَةَ بْنِ أَدِّ بْنِ طَابِخَةَ بْنِ إِيَّاسِ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، السُّرْمِيِّ. اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّي مِنْ أَعْظَمِ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ؛ إِذْ تَقَدَّمْتُ أَنَا وَأَمْرُؤُ الْقَيْسِ وَالنَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ عَلَى سَائِرِ الشُّعْرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ؛ فَقَدْ كُنْتُ لَا أَتَّبِعُ حُوشِي الْكَلَامِ، وَلَا أَقُولُ مَا لَا أَعْرِفُ، وَلَا أَمْدَحُ الرَّجُلَ إِلَّا بِمَا يَكُونُ فِيهِ، وَكُنْتُ أَحْسَنَ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ شُعْرَاءً، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سَخْفٍ، وَأَجْمَعُهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ، وَأَكْثَرَهُمْ أَمْثَالًا فِي شِعْرِي.

كُنِّي أَبِي بَابِنْتِهِ سَلْمَى، فَقِيلَ لَهُ: «أَبُو سَلْمَى رِبِيعَةَ». كَمَا قِيلَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى. تَرَكَ وَالِدِي وَنَفَرَ مِنْ أَسْرَتِهِ، قَوْمَهُمْ بَنِي مُزَيْنَةَ، وَنَزَلُوا مَكَانًا بِنَجْدٍ مِنْ أَرْضِ غَطَفَانَ فَأَقَامُوا فِيهِ.

وَفِي غَطَفَانَ وُلِدْتُ، وَتَرَعَرَعْتُ بَيْنَ أَقْرَابِ أَبِي، وَتَرَبَّيْتُ عَلَى يَدِ خَالِي بَشَامَةَ بْنِ الْغَدِيرِ، وَكَانَ سَيِّدًا غَنِيًّا، وَشَاعِرًا مَعْرُوفًا، وَرَجُلًا مُقْعَدًا، عُرِفَ فِي قَوْمِهِ بِالْحِكْمَةِ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ، وَلَمْ يَكُنْ لِبَشَامَةَ وَلَدٌ فَأَجَبَنِي، وَعُنِيَ بِي، وَوَجَدَ فِي عَوْضًا عَنِ ابْنِ الْبَنِي الَّذِي حُرِّمَهُ.



عَشْتُ فِي رِعَايَةِ بَشَامَةَ، أَتَادَبُ عَلَى يَدِهِ، وَأُفِيدُ مِنْ خَبْرَتِهِ، وَتَجَرَّبَتِهِ، وَشِعْرِهِ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ بَشَامَةَ جَعَلَ يَفْسِمُ الْمَالَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، بَيْنَ إِخْوَتِهِ وَبَنِي أَخِيهِ وَأَقَارِبِهِ، فَجِئْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا خَالَاهُ! لَوْ قَسَمْتَ لِي مِنْ مَالِكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا بَنَ أُخْتِي لَقَدْ قَسَمْتُ لَكَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَجْزَلَهُ، فَقُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: شِعْرِي وَرِثَتِيهِ، ثُمَّ أَعْطَانِي مِنْ مَالِهِ.

وَكَانَ الشَّاعِرُ أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ، وَهُوَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمَعْدُودِينَ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ، زَوْجًا لَأُمِّي، فَجَمَعَتِ الرَّابِطَةَ بَيْنَنَا، وَلَزِمْتُ أَوْسًا، أَحْفَظُ شِعْرَهُ، وَأَرْوِيهِ عَنْهُ. ثُمَّ بَدَأَ نَجْمِي يَلْمَعُ، وَتَفْتَحَتْ قَرِيحَتِي عَنْ لَوْنٍ مِنَ الشُّعْرِ الْجَيِّدِ، اسْتَرَعَى أَنْظَارَ غَطَفَانَ، فَقَدَّرْتَنِي لِشِعْرِي، كَمَا قَدَّرْتَ مَا فِي طَبِيعَتِي مِنْ جَدٍّ، وَوَقَارٍ، وَمَيْلٍ إِلَى الْخَيْرِ، وَسُمْؤٍ فِي الْأَخْلَاقِ، وَبُئْلِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ.

رُبَّمَا أَكُونُ مِنَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ دَفَعْتَهُمْ أَنَاتِهِمْ، وَرَوَيْتَهُمْ، وَحَرَضْتَهُمْ عَلَى الْإِجَادَةِ، إِلَى التَّأْنِي فِي قَوْلِ الشُّعْرِ، وَتَفْقِيحِهِ، وَتَخْلِيصِهِ مِمَّا قَدْ يَغْضُ مِنْ جَمَالِهِ، فَقَدْ كُنْتُ أَقْضِي فِي نَظْمِ الْقَصِيدَةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ كَامِلَةً، وَأَنْقَحْتُهَا فِي أَرْبَعَةٍ، ثُمَّ أَعْرَضْتُهَا عَلَى أَهْلِ الْفَنِّ فِي أَرْبَعَةٍ، وَلِهَذَا تُسَمَّى مُطَوَّلَاتِي بِالْحَوْلِيَّاتِ.

وَمَرَّتْ بِي حَرْبٌ دَاحِسٌ وَالْغَبْرَاءُ وَعَشْتُ أَحْدَاثُهَا، وَرَأَيْتُ مَا تَرَكَتُ مِنْ صُورِ الْبُؤْسِ فِي عَبَسٍ وَفِي ذُبْيَانَ، وَمَا خَلَفْتُ مِنْ فَقْرٍ وَيْتِمٍ، فَرَحْتُ أَنْ لَمَسْتُ سَبِيلَ الْخَلَاصِ مِنْ وَيْلَاتِهَا، وَأَرْزَائِهَا، وَوَجَدْتُ ذَلِكَ عَلَى يَدِ هَرَمِ بْنِ سِنَانَ، وَالْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ، اللَّذِينَ تَدَارَكَا الْقَبِيلَتَيْنِ، وَحَمَلَا عَنْهُمَا دِيَاتِ الْقَتْلِ، وَأَعَادَا إِلَيْهَا نِعْمَةَ السَّلَامِ، فَهَزَنِي هَذَا الصَّنْعُ الْكَرِيمُ، فَأَنْشَأْتُ فِي مَدْحِهَا مُعَلَّقَتِي الشَّهِيرَةَ.

وَحَدَّثَ أَنْ تَرَاهَنَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ، وَحَمَلُ بْنُ بَدْرِ عَلَى دَاحِسِ وَالْغَبْرَاءِ، وَجَاءَ وَقْتُ السَّبَاقِ، فَخَافَ حَمَلٌ أَنْ يَسْبِقَ دَاحِسٌ فَرَسَهُ، فَلَجَأَ إِلَى حِيلَةٍ دَبَّرَهَا مَعَ بَعْضِ فِتْيَانِ قَوْمِهِ، إِذْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَكْمُنُوا فِي طَرِيقِ دَاحِسِ، وَيَضْرِبُوا وَجْهَهُ إِذَا جَاءَ سَابِقًا، وَفَعَلَ الْفِتْيَانُ مَا أَمَرُوا

تَأَثَّرَ زُهَيْرٌ بِصَنِيعِ هَرَمِ

ابْنِ سِنَانَ، وَالْحَارِثِ

ابْنِ عَوْفٍ فَأَنْشَأَ فِيهِمَا

مُعَلَّقَتَهُ الشَّهِيرَةَ

بِهِ، فَسَبَقَتِ الْغَبْرَاءُ، وَشَاعَ الْخَبْرُ، وَأُنْكَشَفَتِ الْحِيلَةُ، وَعَرَفَهَا قَيْسُ ابْنُ زُهَيْرٍ، فَغَضِبَ وَغَضِبَتْ لَهُ عَبَسٌ كُلُّهَا، وَأَتَسَّعَتْ هُوَّةُ

الْخِلَافِ بَيْنَ الْقَبِيلَتَيْنِ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى هَذِهِ الْحَرْبِ الطَّاحِنَةِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ - فِيمَا يُقَالُ - أَرْبَعِينَ عَامًا، حَتَّى تَقَدَّمَ هَذَانِ الرَّجُلَانِ، وَهُمَا مِنْ قَبِيلَةِ ذُبْيَانَ، فَأَصْلَحَا بَيْنَ الْقَبِيلَتَيْنِ، وَاحْتَمَلَا دِيَاتِ الْقَتْلِ، وَقَدْ بَلَغَتْ ثَلَاثَةَ آلَافِ بَعِيرٍ.